السـرد (La narration)

مفهـوم السـرد :

يقوم الحكي عامة على دعامتين أساسيتين :

أولاهما : أن يحتوي على قصة مّا ، تَضُمُّ أحداثاً معينة .

وثانيتهما : أن يُعَيِّن الطَّريقة التي تُحْكَى بها تلك القصة . وتُسمى هذه الطريقة سرداً ، ذلك أن قصة واحدة يُمْكِنُ أنْ تُحْكى بطرق مُتَعدِّدة ، ولهذا السبب فإن السرد هو الذي يُعْتَمَدُ عليه في تمييز أنْماط الحَكْي بشكل أساسي .

إنَّ كون الحكي ، هو بالضرورة قصة محكية يَفْتَرِضُ وجود شَخْصٍ يحكي ، وشخْصٍ يُحْكى له ، أي وجود تواصل بين طرف أول ، يدعى « راوياً » أو سارداً Narrateur وطرف ثانٍ يدعى مروياً له أو قارئاً (Narrataire) [113] . وسنرى عند حديثنا عن الشخصية الحكائية أن المبدأ في علاقة الراوي بالقارىء هو مبدأ الثقة ، لأن القارىء ينقاد مبدئياً نحو الثقة في رواية الرَّاوي . وإذا نحن تجاوزنا مجمل القضايا التي تناقشها البنائية في هذا المجال ، وهي متعلقة مثلاً بالتمييز بين الكاتب والراوي ، وبين القارىء والمروي له ، فإننا نَسْتَخْلِصُ من كلِّ ما سبق أن الرواية أو القصة باعتبارها محكياً أو مروياً تمر عبر القناة التالية :

الـراوي	← القصّـة ←	المَرْوي لَـهُ

وأن « السرد » هو الكيفية التي تُرْوى بها القصة عن طريق هذه القناة نفسها ، وما تخضع له من مؤثرات ، بَعْضُها متعلق بالراوي والمروي له ، والبعض الآخر متعلق بالقصة ذاتها .

---

(113) J. L. Dumortier et Fr. Plazanet: **Pour lire le récit.** Ed. Duclot. 1980. P. 89-90.

إنّ القصة إذن لا تتحدد فقط بمضمونها ، ولكن أيضاً بالشكل أو الطريقة التي يُقَدَّمُ بها ذلك المضمون ، وهذا مَعْنَى قول كيزر (Wolfgang Kayser) :

« إن الرواية لا تكون مُمَيَّزة فقط بمادتها ، ولكن أيضاً بواسطة هذه الخاصية الأساسية المتمثلة في أنْ يَكُونَ لها شَكْلٌ ما ، بمعنى أن يكون لها بداية ووسط ، ونهاية »[114] . والشكل هنا له معنى الطريقة التي تقدم بها القصة المَحْكية في الرواية ، إنه مجموع ما يختاره الراوي من وسائل وَحيل لكي يُقَدِّم القصة للمروي له .

زاوية رؤية الراوي (أو أشكال التبئير Focalisation)(*)

يُعَرِّفُ بوث (Wayne G. Booth) زاوية الرؤية (Point de vue) بقوله : « إننا متفقون جميعاً على أن زاوية الرؤية ، هي بمعنى من المعاني « مسألة تقنية ووسيلة من الوسائل لبلوغ غايات طموحه »[115] .

ويتبين لنا من خلال هذا التعريف أن زاوية الرؤية عند الراوي ، هي متعلقة بالتقنية المُسْتَخدمة لحكي القصة المتخيلة . وأن الذي يحدد شروط اختيار هذه التقنية دون غيرها ، هو الغاية التي يَهدِفُ إليها الكاتب عَبْر الرَّاوي . وهذه الغاية لا بد أن تكون طموحة ، أي تُعَبِّر عن تجاوز معين لما هو كائن ، أو تُعَبِّر عَمَّا هو في إمكان الكاتب ، ويُقْصَدُ من وراء عرض هذا الطموح التأثيرُ على المرْوي له أو على القُرَّاء بشكل عام . ولا يهمنا هنا أن نتحدث عن مضمون هذا الطموح ، ولكن عن الطرق المختلفة لزوايا النظر التي يُعَبِّرُ بواسطتها عَنْهُ .

يُمَيِّزُ الشكلاني الروسي « توماتشفسكي » بين نمطين من السرد : « سَرْدٌ موضوعي (Objectif) ، وسَرْدٌ ذاتي (Subjectif) ، ففي نظام السرد الموضوعي يكون الكاتب مُطَّلِعاً على كل شيء ، حتى الأفكار السرية للأبطال . أما في نظام السرد الذاتي ، فإننا نَتَتَبَّعُ الحكي من خلال عَيْنَيْ الراوي (أو طرف مستمع) متوفرين على تفسير لكل خبر : متى وكيف عرفه الراوي أو المستمع نفسه »[116] .

---

(114) Wolfgang Kayser: **Quit racente le roman,** in-Poétique du récit points. Seuil. 1977. P. 66.
وانظر أيضاً دراسة هذا الجانب من زاوية علاقة الملفوظ بالتلفظ (L'enoncé et et l'enonciation) . في كتاب : Bernard Valette: **Esthétique du roman moderne.** Nathan. 1985. P. 21-22.

(*) إن التبئير في الأعمال القصصية هو تحديد زاوية الرؤية ضمن مصدر محدد ، وهذا المصدر إما أن يكون شخصية من شخصيات الرواية أو راوياً مفترضاً لا علاقة له بالأحداث . انظر زيادة توضيح المصطلح في كتاب :
Francis Vanoye: **Récit écrit-Récit Filmique.** Ed: CEDIC. Paris 1979. p. 147-148.

(115) Wayne G. Booth «**Distance et point de vue**» Poétique du récit. (مذكور) P. 87.

(116) نظرية المنهج الشكلي ـ نصوص الشكلانيين الروس ـ ترجمة إبراهيم الخطيب . مؤسسة الأبحاث العربية . ط : 1 . 1982 . ص : 189 .

ففي الحالة الأولى (السرد الموضوعي) يكون الكاتب ، مُقَابِلاً للراوي المحايد الذي لا يتدخل ليُفَسِّر الأحداث ، وإنما ليصفها وصفاً محايداً كما يراها ، أو كما يستنبطها في أذهان الأبطال ، ولذلك يُسَمَّى هذا السرد موضوعياً لأنه يترك الحرية للقارىء ليفسر ما يُحْكَى له وَيُؤَوِّلَهُ ، ونموذج هذا الأسلوب هو الروايات الواقعية .

وفي الحالة الثانية لا تُقَدَّمُ الأحداثُ إلاَّ من زاوية نظر الراوي ، فهو يُخْبِرُ بها ، ويعطيها تأويلاً معيناً يَفْرِضُهُ على القارىء ، ويدعوه إلى الاعتقاد به . نموذَجُ هذا الأسلوب هو الروايات الرومانسية ، أو الروايات ذات البطل الإشكالي .

والواقع أن « توماتشفسكي » قد سبق غَيْرَهُ إلى تحديد زاوية رؤية الراوي هذه وأسلوب السرد الذي يختاره لروايته ، في الوقت الذي نجد فيه أغلب النقاد المعاصرين يعتبرون الناقد الفرنسي « جَانْ بويون » (Jean Pouillon) في كتابه « الزمن والرواية »(*) أول مَنْ فَصَّلَ القَوْلَ في زاوية الرؤية هذه[117] . ونتعرض هنا لزاوية الرؤية السَّردية للراوي كما وضعها « جان بويون » مُعْتَمِدِين في ذلك على مقال لِـ « تودوروف » بعنوان : مقولات الحكي . والجدير بالذكر أن « تودوروف » اعتبر مجموع زوايا الرؤية السردية مجرد مظاهر للحكي :

أ ـ الراوي > الشخصية الحكائية (الرؤية من خلف) (Vision par derrière) :

ويستخدم الحكي الكلاسيكي غالباً هذه الطريقة ، ويكون الراوي عارفاً أكثر مما تعرفه الشخصية الحكائية ، إنه يستطيع أن يصل إلى كل المشاهد عبر جدران المنازل ، كما أنه يستطيع أن يُدْرِكَ ما يدور بخلد الأبطال . وتتجلى سلطة الراوي هنا في أنه يستطيع مثلاً أن يُدْرِكَ رغبات الأبطال الخفية ، تلك التي ليس لهم بها وَعْيٌ هم أنفسهم[118] . ويتضح أن العلاقة السلطوية بين الراوي والشخصية الحكائية ، هي ما أشار إليه « توماتشفسكي » بالسرد الموضوعي .

ب ـ الراوي يساوي (=) الشخصية الحكائية (الرؤية مع Vision avec) :

وتكون معرفة الراوي هنا على قدر معرفة الشخصية الحكائية ، فلا يُقَدِّمُ لنا أيَّ معلومات أو تفسيرات ، إلاَّ بعد أن تكون الشخصية نَفْسُها قد توصلت إليها . ويُسْتَخْدَمُ في

(*) نشير هنا إلى أن توماتشفسكي أصدر بحثه المتعلق بنظرية الأغراض الخاص بالسرد منذ سنة 1923 بينما نشر بويون كتابه هذا سنة 1945 .

(117) وردت أيضاً إشارة إلى هذه الرؤية السردية في كتاب : Jean Luis Cabanès: **Critique littéraire et sciences humaines.** Privat-éditeur 1974. P. 135-136.

وانظر أيضاً كتاب :

Georges Jean: **Le roman.** Seuil, 1971. P. 144 - 145.

(118) T. Todorov: **Les catégories du récit,** in-l'analyse structurale du récit -Communications 8. Seuil. 1981. P. 147-148.

هذا الشكل ضمير المتكلم أو ضمير الغائب ولكن مع الاحتفاظ دائماً بمظهر الرؤية مع ، فإذا ابتُدِيء بضمير المتكَلِّم وتَمَّ الانتقال بعد ذلك إلى ضمير الغائب ، فإن مجرى السرد يَحْتَفِظُ مع ذلك بالانطباع الأول الذي يقضي بأن الشخصية ليست جاهلة بما يعرفه الراوي ، ولا الراوي جاهل بما تعرفه الشخصية[119] . والراوي في هذا النوع إمّا أن يكون شاهداً على الأحداث أو شخصية مُسَاهِمة في القصة .

إنَّ الرؤية مع ، أو العلاقة المُتَساوية بين الراوي ، والشخصية هي التي جعلها « توماتشفسكي » تحت عنوان : « السرد الذاتي » . والواقع أن الراوي يَكُونُ هنا مصاحباً لشخصيات يَتَبَادَلُ معها المعرفة بِمَسَارِ الوقائع . وقد تكون الشخصية نَفْسُها تقوم برواية الأحداث ، ويتجلى هذا بشكل واضح في روايات الشخصية ، سواء في الاتجاه الرومانسي أو في اتجاه الرواية ذات البطل الإشكالي .

جـ ـ الراوي < الشخصية (الرؤية من خارج ـ Vision de dehors) :

ولا يَعْرِفُ الراوي في هذا النوع الثالث إلاَّ القليل مما تعرفه إحدى الشخصيات الحكائية ، والراوي هنا يَعْتَمِدُ كثيراً على الوصف الخارجي ، أي وصف الحركة والأصوات ، ولا يعرف إطلاقاً ما يدور بخلد الأبطال . ويرى « تودوروف » أن جهل الراوي شبه التام هنا ، ليس إلاَّ أمراً اتفاقياً ، وإلاّ فإن حكياً من هذا النوع لا يمكن فهمه[120] .

ونلاحظ أن « توماتشفسكي » لم يُشِرْ إطلاقاً إلى هذا النوع الثالث من زاوية الرؤية السردية ، وهذا الأمر راجع إلى أن الأنماط الحكاية التي تَتَبَنَّى مثل هذه الرؤية السردية لم تكن قد ظَهَرَتْ بشكل واضح إلاّ بعد منتصف القرن العشرين على يد الروائيين الجدد ، ووُصِفَتِ الرواية المنتمية لهذا الاتجاه بالرواية الشَّيئية ، لأنها تخلو من وصف المشاعر السيكولوجية كما أن بعضها يَكَادُ يخلو من الحدث؛ هناك غالباً وصف خارجي محايد لحركة الأبطال وأقوالهم ، وللمشاهد الحسية مع غياب أي تفسير أو توضيح . والقارىء في مثل هذه الروايات يَجِدُ نَفْسَهُ دائماً أمام كثير من المبهمات عليه أن يَجْتَهِدَ بنفسه لإكْسابها دلالةً معينة .

مظاهر حُضور الراوي (السارد) في الحكي :

إن دراسة مظاهر حضور الراوي تعني اقتفاء أثر صوت الراوي داخل الحكي ، ويقتضي الكلام عن ذلك الإجابة عن السؤال : من يتكلم في الحكي أو في الرواية ؟ ثم الإشارة ثانياً إلى تدخلات الراوي في الحكي ، وأخيراً الحديث عن تناوب عملية السرد في القصة أي الحديث عن الحالة التي يتناوب فيها السَّرْدَ عددٌ من الرواة ، إمّا أن يكونوا أبطالاً في الوقت

---

(119) T. Todorov: Les catégories du récit, in-L'analyse structurale du récit - Communications. 8.Seuil. 1981 P. 147-148

(120) Ibid P. 148

نفسه ، أو رواة لا علاقَة لهم بالحدث الحكائي أي مجرد شهود[121] .

* المتكلم في الحكي :

هناك حالتان : إما أن يكون الراوي خارجاً عن نطاق الحكي Narrateur hétérodiégétique ، أو أن يكون شخصية حكائيةموجودة داخل الحكي ، فهو إذاً راوٍ مُمَثَّلٌ داخل الحكي Narrateur homodiégétique وهذا التمثيل له مستويات ، فإما أن يكون الراوي مجرد شاهد متتبع لمسار الحكي ، يتنقل أيضاً عبر الأمكنة ، ولكنه لا يشارك مع ذلك في الأحداث ، وإمَّا أن يكون شخصية رئيسية في القصة[122] .

* تدخلات الراوي في سياق السرد :

عندما يكون الراوي مُمَثَّلاً في الحكي ، أي مشاركاً في الأحداث إمَّا كشاهد أو كبطل ، يمكن أن يتدخل في سيرورة الأحداث ببعض التعاليق أو التأملات ، تكون ظاهرة ومَلْموسة إذا ما كان الراوي شاهداً لأنَّها تُؤدِّي إلى انقطاع في مسار السرد ، وتكون مُضْمَرَةً ومتداخلة مع السرد بحيث يصعب تمييزها إذا كان الراوي بطلاً[123] .

وفي بعض الحالات التي يكون فيها الراوي غير مُمَثَّلٍ في الحكي ويلجأ إلى التَّدَخُّل والتعليق على الأحداث ، فإن الأمر قد يؤدي إلى تَصْديع البناء الخيالي الذي أقامه الراوي نفسه ، إذ يصعب بعد هذا على القارىء أن يُصَدِّق بأن الأبطال لَدَيْهم حُرية الحركة والتصرف .

* تعدد الرواة :

يَسْمَحُ الحَكْيُ باستخدام عَدَدٍ من الرواة ، ويكون الأمر في شكله الأكثر بساطة عندما يتناوب الأبْطال أنفسُهم على رواية الوقائع واحداً بعد الآخر ، ومن الطبيعي أن يَخْتصَّ كُلُّ واحد منهم بسرد قصته ، أو على الأقل بسرد قصة مخالفة من حيث زاوية النظر لِما يرويه الرُّوَاةُ الآخرون ، وهذا ما يُسَمَّى عادة بالحكي داخل الحكي ، وعلى مستوى الفن الروائي يؤدي هذا إلى خلق شكلٍ متميز يسمى الرواية داخل الرواية[124] .

إن تعدد الرواة يؤدي غالباً إلى تعدد وجهات النظر حول قصة واحدة ، وتنتمي إلى هذا النوع الروايات الرسائلية . وليس من الضروري أن تكون الرواية داخل الرواية مشروطة بتعدد الرواة ، فبإمكان راوٍ واحدٍ أن يَعْقِدَ علاقات بين مقاطع حكائية مختلفة من حيث زاوية الرؤية ، وهكذا يولد الرَّاوي الواحد زوايا متعددة للرؤية .

* * *

(121) (مرجع مذكور) **Pour lire le récit** P. 111.

(122) Wayne G. Booth: **Distance et point de vue**, in-Poétique du récit. Seuil. 1977. P. 94-95.

(123) **Pour lire le récit P. 117.**

(124) **Pour lire le récit P. 118**